من الأدب التونسي الحديث

اللون التقليدي المحافظ

الدكتور ابراهيم السامرائي

لقد حجب الاستعمار الفرنسي الشمالي الافريقي عن سائر بلدان المشرق العربي • وقد طال أمد هذه القطيعة، فلم يتح للمغاربة على وجه العموم ان يتصلوا باخوانهم عرب المشرق الا بعد ان نفض اخواننا المغاربة عنهم ظلام المستعمر وظلمه •

ولم يتح لنا ـ نحن المشارقة ـ ايضا ان نعرف عنهم الا ما تكتبه كتب الثقافة الفرنسية عنهم وفي هذا ما فيه من جور على الحقيقة وابتعاد عن الواقع وظلم للثقافة الحرة •

والادب العربي في تونس بسبب هذا الاستعمار البغيض لم يتهيأ له ان ينبعث وظل متأثراً بالاساليب القديمة • والاديب عند القوم هو الزيتوني واقصد بالزيتوني الذي تلقى العلم والادب في المعهد التونسي الكبير الجامع الاعظم جامع الزيتونة الشهير ، وقد ظل هذا المعهد العظيم مناراً للعلم وحامياً للعربية والحضارة الاسلامية وواقفاً في وجه هذه الثقافة الدخيلة التي جاء بها الاستعمار والتي اريد منها ان تسود في هذه البلاد المسلمة وان تبقى فيها اثاراً واضحة • ولن يتسنى لها ذلك الا بالقضاء على العربية ما وسعهم العمل •

وهذا العنف الاستعماري الذي اراد السيطرة على ثقافة امة بمحو حضارتها وابعادها عن اصولها العريقة، بعث في الامة التونسية الحماس الكبير في الحفاظ على العربية وآدابها، وهذا الحفاظ او قل هذا الحماس هو الذي حمل اهل الادب على ان يحتفظوا بما ورثوه من ثقافة ومنهج في فهم هذه الثقافة •

فاذا تهيأ للباحث ان يدرس هذا الادب التونسي فلا بد ان ينهج في ذلك منهجاً علمياً فيتقصى اللون التقليدي المحافظ الذي درج عليه الادباء التونسيون في مطلع هذا القرن، حتى اذا اتيح لنفر منهم ان يتصلوا بالنهضة التي بدأت انوارها تسطع في الشرق العربي من الناحية الثقافية، أخذ هؤلاء بشيء من المنهج الجديد الذي سنعرض في هذه الدراسة •

اقول : ان هذا الادب التونسي لم يكن شيئا غير الذي وجدناه في دمار

المشرق ان لم يكن صورة تقليدية له • غير ان هؤلاء المغاربة قد شعروا بأنهم اقليم يفصله عن الشرق أكثر من فاصل واحد، وقديما كان المغاربة يشعرون هذا الشعور، فقد كان فيهم الاديب والعالم والشاعر والمحدث والفيلسوف وغير هؤلاء من اصحاب الاختصاص • اما الحال في عصرنا الحديث فلم تكن شيئاً يختلف عما كانت عليه في الاعصر الخالية ، فالتونسيون وغيرهم من المغاربة يشعرون بهذه الاقليمية الادبية، وآية ذلك قلدوا المشارقة في تنصيب امير للشعراء عندهم سموه بأمير شعراء الخضراء • ويبدو من ذلك ان الاجماع لم يحصل على بيعة شوقي من شعراء المشرق، وهم في ذلك يريدون ان يقولوا للمشارقة : اننا مثلكم او خير منكم، او كأنهم ارادوا ان يقولوا مقالة السلف «منا امير ومنكم امير» •

وهذا التونسي الذي بويع بامارة الشعر هو محمد الشاذلي خزنه دار[1] من البارزين بين الشعراء التونسين في مطلع هذا القرن •

والنظر في شعره لا يؤيد هذا اللقب الخطير الذى بويع عليه، فهو رصاف للقوافي ليس غير، وما اكثر رصاف القوافي في كل مصر من الامصار، ولكنه يرصفها بشكل جعلت محمد الفائز القيروانى ينعته «بهزار الخضراء»[2] والخضراء تونس كما هو مشهور ومعروف ، وان «هذا الهزار» تفاخر به الخضراء «ارض الكنانة» في «يوم الرهان» •

اذن فالمسألة مسألة سبق ورهان ، واذا كان من سبق فلا بد من قصب يحرزه السابق وقصب السبق عرش الامارة •

ولنرجع الى شيء من شعر امير الشعراء خزنه دار فنسمعه يقول في «الحر» :

الحر من لا يستكين لمرهق ... فعليك خصمك مم ويحك تتقى
واصدع بحقك في الاباة ولا تقل ... « ان البلاء موكل بالمنطق »

---

١ ــ محمد الشاذلي خزنه دار من شعراء تونس . ولد سنة ١٢٩٩ للهجرة وقد نشأ في البلاط التونسي وترعرع في الترف والنعيم ، غير ان هذه النشأة لم تنسه الشعب التونسي فظل يتحسس بآلامه ويشيد ببطولته ومفاخره . ومن اجل هذا فقد أبعد عن أي منصب من مناصب الدولة العالية .

٢ ــ لقد بايع الشاعر التونسي مع آخرين الشاعر خزنه دار بامارة الشعر قائلا له :

أمير القوافي وحارسها ... وبلبل تونس شيخ البيان
فانت الهزار بخضرائها ... تفاخر مصر بيوم الرهان

فالى م تستجدي وحقك بين شلت يد تستد للمتصدق
تبا لمن ألف الخنوع لغاشم ما تلك الا شيمة المتملق
أولى واحرى ان يبيت على ظمأ من ظل من ماء المهانة يستقى
فيم احتمالك والكوارث جمة ممن يراك بنظرة المتنوق
صم وعمي ساخرين تطاولا منا كأنا في الورى لم نخلق

الى آخر هذه الابيات التى لم تتوقع ان تكون لناظم خامل الذكر في ايامنا فضلا عن انها لشاعر، بل امير للشعراء، فهذه الابيات اعلق بالنظم والصق بالرصف ، فلا تقرب من مادة الفن التي لها ادوات وآلات لا يملكها السيد الخزنه دار، ولس في هذه الابيات الا جملة معان مختلفة متباعدة افرغ الناظم كلا منها في بيت من عدة هذه الابيات بطريقة تقريرية حكائية لاتبعد كثيراً عما يخوض الناس فيه من شؤونهم اليومية • فأنت اذا رجعت الى هذه المقطوعة وجدتها اجزاء منفصلة لاتوحى ان صاحبها قد نظر لموضوع « الخر » نظرة الفنان الذي يريد ان يصنع الصورة الموحية للحرفي عالم يشقى فيه • واين هذه الصورة التى نريدها من ابياته الاخيرة التى اقتصرت على النصيحة والعظة •

ومن المظاهر التقليدية في شعر الشاعر انه عارض الشعراء الاقدمين • ومن الطريف انه عارض بائية أبى نواس الخمرية المشهورة التى مطلعها :ـ

حامل الهوى تعب يستخفه الطرب

وكذلك فعل شوقى فعارضها قائلا :ـ

حف كأسها الحبب فهى فضة ذهب

أما صاحبنا التونسى امير شعراء الخضراء فقد قال :ـ

راحة النهى الطرب هاتها فلا عتب
الدنان مترعة والخمور تنسكب
والكؤوس جارية طاف فوقها الحبب
بنت كرمة جليت نعم ذلك النسب
رحبوا بآنسة زفها لنا العنب

وهكذا يستمر في وصف الخمرة ومجلسها وآلتها وما يصحب هذا المجلس من انس وقصف ولهو وغناء • والمعارضة باب من ابواب التقليد واصحاب المعارضة يترسمون القديم وقد يترسمونه بالشكل في تحريف طفيف،والاغلب

فيها ان المعاني مستعارة من الشعر القديم ليس فيهـا ما املته ظروف الواقع الجديد .

ويجرى على هذا النمط التقليدي شـعر ابى الحسن بن شعبان مـن الشعراء التونسيين في مطلع عصرنا الحديث . والتونسيون يرونه الشـاعر الكبير، ولكن النظر في شعره لا يخولنا تصديق هذا الـزعم، فلنسمع لابى الحسن من رثاء الشاعر الامير (محمد الصالح باى) يعزي فيها السيد الشاذلى خزنه دار امير الشعراء فيقول :ـ

أمير الشعـر قـد عظم المصاب وحل بـدار نـدوتنا الخـراب
وفاجأنا الـزمان بفقـد خـدن تفـانت في محبتـه الصحـاب

الى ان يقول : ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ

وكـانت فيـه امـال كبـار فاسـدل دونهـا عنـا الحجاب
تغيب عـن مجالسنا اضطـراراً فسـاء جميعنا هـذا الغيـاب
واظلم عند ذا النادي وصـدت عـن الانشـاد الفاظ عـذاب
وكنت اسـائل الاتـراب عنـه دوامـاً كلمـا عـز اقتـراب
وارجـو ان تطيب لـه حيـاة وارجو ان تـزان بـه رحـاب
فقـالـوا انـه امسـى عليـلا فـأرق مهجتي هـذا الجـواب
وقالوا بـات في خطـر عظيـم فمَسّ مكامن القلب اضطراب
وقالوا مات مـن الـم فسحت عيونى مثلما سـح السـحاب

واذا عدت الى هذه الابيات لتقلبها فـرادى وجـدتها تشـكو ضعف البناء، فاذا نظرت الى البيت الثانى وجدت الشاعر يقول «تفانت في محبتـه الصحاب» فاستعمل فعل التفانى الاستعمال المألوف فكأنه يريد به «الفناء» والصحيح في دلالة الفعل ان يحصل الفناء كما تفني جماعةٌ جماعةً اخرى كما في قول الشاعر القديم :

تـداركتما عبساً وذبيان بعـدما تفانوا ودقّوا بينهم عطر منشم

ثم انك تشعر ان الشاعر يتصيد الكلمات لتسلم له عدة من الابيـات على قافية واحدة، وهو في ذلك يسلك كل مسلك وعر، فاذا قرأت البيتين الآتيين :

وأظلم عنـد ذا النـادى وصـدت عن الانشـاد الفاظ عـذاب

---

٣ ـ ابو الحسن بن شعبان من مشاهير الشعراء التونسيين . ولد سنة ١٨٩٧ في اسرة عرفت بالنبل والزهد والتقوى . ومن اجل ذلك فقد شب على ثقافة دينية ، ثم دخل الجامع الاعظم وتخرج في « **الزيتونة** » **العامرة** .

وكنت اسائل الاتراب عنه دواماً كلما عزّ اقتراب

تبينت ضعف التركيب في «واظلم عند ذا النادى» وفي قوله «كلما عز اقتراب» ولااريد أن اعلق على «الاتراب» الذين جعلهم وصفاً للمذكر، والكلمة لم يرد استعمالها الا في المؤنث كما في قوله تعالى : «عرباً اتراباً»، وان قيل انها تصلح للمذكر •

ثم يتوجه الشاعر الى «امير الشعر» فيذكر بيوم وفاة المرثي وكيف جاءوا به وواروه التراب بأسلوب لا يختلف عما رأيناه في الابيات التى اثبتناها، والقصيدة في جملتها غير جيدة • ولصاحبنا مقطوعة يبدو فيها ميل الشاعر للنهج القديم وهى ابيات في رثاء قطب من اقطاب الصوفية، والمتصوفة يومئذ قد فقدوا الحظوة لدى العامة ذلك انهم شايعوا المستعمر الفرنسى • وانت تقرأ هذه الابيات فلا ترى فيها مادة شعرية بل هى الفاظ جرب فيها صاحبها صنعة النظم التى تفتقر الى عناصر الفن الاصيل • يقول الشاعر في رثاء صاحبه :ـ

قد عاش طول حياته متعبداً في خلوة وتبوأ المحرابا
يتلو كتاب وهو اعزما يتلوه من قد لازم الادابا
فالله جل جلاله قد خصه بمزية يعلو بها الاقطابا

وما اظن ان هذه الابيات من مادة الشعر، ولكن صاحب الكتاب يعود فيعقب على هذه الابيات باخرى تصور عواطفه نحو ذلك «القطب» فيقول :ـ

قد كنت آمل ان افوز بزورة لعلاكم وأقبل الاقطابا
وانال من ذاك المحيا نظرة تحيى فؤاداً بالجوى قد ذابا
أكرم بها من زورة لو عجلت لرجعت منها قد ملات وطابا
قد كنت ارقبها بلوعة مغرم واريد ان اشقى بها او صابا
حتى أتت انباء موتك بغتةً فبقيت بعدك لا اسيغ شرابا
من ذا الذى من بعد موتك يرتجى كيما يسوق لنا الاله سحابا
أم من يكون الى البلاد نصيرها ان اطلعت فيها السنون مصابا

تقرأ هذه الابيات فلا تثير في نفسك شيئاً، فاين هى العواطف الحرار، واين هى الالتفاتة الفنية الشاعرة، ولكنك من غير شك واجد في هذه الابيات ضيق الشاعر وحرجه ومعاناته لتصيد الفاظ قوافيه لتتهيأ له عدة هذه الابيات التي لم تنصف الرثاء •

وشعر ابى الحسن بن شعبان لا يمكن أن يتخذ مادة للحكم له بشيء،

فهو نظم لا يصلح أن يكون شعراً ، ومن ذلك قصيدته التي اسماها «انشودة التونسي» وهي موشحة طويلة اشتملت على قواف عدة، ولنسمعه في شيء منها :ـ

أيا تونس الانس ماذا الاقى ... بحبك من موجعات الغرام
وكم لك من عاشق ذى احتراق ... براه الضنى وجفاه المنام

لقد اودع الله فيك جمالا ... به قد تفردت بين البلاد
واجرى بك الماء عذباً زلالا ... بهام الربا وبطون الوهاد
واكسب فيك الهواء اعتلالا ... فكان عليلا يداوى الفؤاد

وهذا النظم لا يفصح عن اغنية خفيفة عذبة لعاشق براه الضنى وجفاه المنام وانما يشير الى عناء صاحبها في اعداد هذه العدة اللفظية التى يعوزها شيء من لطف الصنعة وبراعة الاداء • وقد قيد الشاعر نفسه في هذه الابيات فجعل الاعاريض على قافية والأضرب على قافية اخرى وفي هذا اصبح سجين الالفاظ يصل اليها بجهد ويتشبث بها بكل وسيلة •

فهو يقول :

أنا منك ياموطني في رواق ... وفيك الهنا وافر مستدام
وجودك لي كان أكرم ساق ... به ترتوى النفس بعد الأوام

ويختم هذا الحشد بقوله :

لتصبح تونس ذات اعتناق ... لعز ثوى اليوم تحت الرجام
واذ ذاك يكفف دمع المآقى ... واذ ذاك نحيا حياة الكرام

وما اظن هذا الضعف يخفى عليك أيها القارىء •

ويستقبل الشاعر سنة ١٣٣٥هـ من سنى الحرب الكبرى فيقول :

أهلا بطلعة بدر لاح في الافق ... يزيل ما في نفوس الناس من قلق
لقد تجلت لنا انوار طلعته ... والجو يختال في برد من الشفق
ومذ بدا والأسى في القلب منبعث ... والجسم في تعب من شدة الأرق

انى لآمل أن يبدو بطالعه ... للناس سلم به يرتاح ذو قلق
سلم يعم بلاد الله قاطبة ... به يزول الذى قد كان من حنق
وان تزول الحروبات التى ظهرت ... بالارض حتى يسير الكون في شفق
ويصفو العيش مما حل من كدرٍ ... كما صفت° من فنون الزور نفس تقى

وتنزع الارض اثواب الحداد لكى تبدو الينا بثوب أبيض يقق

وعلى هذا النحو من البناء الركيك ينظم ابو الحسن بن شعبان قصيدته في استقبال سنة ١٣٣٥هـ وليس بى حاجة الى ان ادل القارىء على مواطن الضعف ذلك أنه يعرف أن هذه الابيات تبتعد كل البعد عن الفن الأصيل .

ويستقبل سنة ١٣٣٦هـ من سني الحرب الكونية الاولى بقصيدة كصاحبتها من حيث البناء الذى لا ترمه مادة عامرة فهى الفاظ صفت تستعين بشيء من الوزن . والوزن ليس كل شيء في الشعر، فهو يقول :ـ

هل لاح بدرك بالمسرة مشرقا أم أنت مثل أخيك تنذر بالشقا
يدري الفتى مامر من ايامه وسواه في الأذهان لن يتحققا
والدهر فيه عجائب مكنونة كم جرّ من جيش الحوادث فيلقا
اني أرى الأيام تعبت بالفتى وتنيله مالا يكون الأوفقا
ـلو يعلم الانسان ما سيصيبه بغدٍ لما لاقى (غداً) متشوقاً
وتخل عن اعماله متحيراً ـ في ذلك الأمر الذى لا يتقى

الى ان يقول :

عام مضى فأتى سواه وهكذا يجرى الزمان بنا كراكب ابلقا
خفف خطاك أيا زمان وسر على مهل ولكن بالمنتطى مترفقا ـ

وهكذا فما أظنني قد جانبت الصواب في حكمى على الشاعر، فصاحب هذه المقطوعات لايمكن ان يكون من زمرة الشعراء، فهو نظام والنظم غير الشعر . وما أظننا نعطى صورة صحيحة عن أدب قوم اذا استقرينا نماذجه في نظم لا يرقى الى الشعر الرفيع .

ولا بد ان نختم هذا الفصل فنأتى على ابيات تكلم فيها الشاعر على «الخلافة العثمانية» والقصيدة لاتخرج عن المستوى الذى اشرنا اليه فهو يقول :ـ

فلتم بفضل الدين اعظم عزة وأردتم لعظيمة اذلالا
وأتيتم الامر الذي قد زلزلت من هوله اقطارنا زلزالا
ونكبتم الاسلام عن عمد وقد كنتم عليه مع الزمان وبالا
أنزلتم ذاك الخليفة من منا زل عزة واذقتموه نكالا
ورضيتم ابعاده عن موطن قضت به آباؤه اجيالا

يا مصطفى اغضبت طه المصطفى واضعت مجداً نلته وكمالا

ربما ايقنت معى ان هذه الابيات لاتملك من الشعر الا هذه الموسيقى • اما معانيها ــ فكلام مما يسرده عوام الناس •

ومن التونسيين الذين لم يكن شعرهم الا نظماً خلا من الكثير من ادوات الفن المقتضاة السيد حسين الجزيري •

والنظر في مختارات هذا الاديب يدل على انه لم يرزق القريحة الخصبة ولم يكن له في هذه المعاناة الا الرصف • ولنقرأ قصيدته «سائلون» لنعرف صدق هذا القول :

سائلونى ان رايتم كدرى ... واردتم وقفة عن خبرى
انا مهموم حسير الطرف ما ... دام قومي همهم في الوتر
سائلونى ما الذى وقت الصباح ... دام ما بيني وبين الغرد
طائر اودى به فرط النواح ... وهو في سجن اليف النكد
قلت مهلا ما الذى تشكو ؟ فصاح ... اترى مثلى أخى في رغد
كيف يسلو الوجد مقصوص الجناح ... كيف لايبكى عديم السند
ياترى مغتصبى كيف استباح ... هكذا حريتى من امد
كنت اشدو في غدو ورواح ... وانا اليوم جريح الكبد
قلت ويلي ! هذا جدّ أم مزاح ... لم يكن يخطر لي في خلد
طائر من ضره في خنجر ... واخو الضرا بها لم يشعر
سائلونى ان رايتم كدرى ... وارتم وقفة عن خبرى
انا مهموم حسير الطرف ما ... دام قومى همهم في الوتر

الى ان يقول :

عجبى لا ينتهى مما ارى ... من نفوس في الملاهي مارحة
امة قد حلق العسف بها ... وهى للهو بجد جانحه
حق للاجفان ان تسقى الثرى ... وعجيب للثغور المازحة
فهى والله اهاجت فكرى ... واطالت يالقومى سهرى

اظن ان هذه لابيات لم ترتفع عن النظم الذى ليس له من الشعر الا هذه القوافي وهذه الموسيقى • موضوع الابيات الشكوى، والشكوى من الموضوعات التى لو تهيأ لها صاحب الفن الموهوب لجاء بالموجع المؤلم في

---

٤ ــ حسين الجزيري من الشعراء التونسيين الذين انصرفوا للصحافة وكان صاحب « النديم » وهي صحيفة ادبية فكاهية اصدرها عام ١٩٢١ •

ثوب قد اتسق لعاطفاته الحرار •

اما السيد الجزيري فهو على شكواه البارد التى تفتقر الى الدفء فقد جاء بناؤه ضعيفاً يتشبث بالوزن بكل زحاف معيب، فلا ارى شاعراً سلمت له المقدرة الشعرية وهو يقول مثل هذا :

قلت ويلى ! هذا جدام مزاح ـ ـ ـ ـ ـ ـ

ومثل هذا لايقوله الا الصبية المبتدئون مسن يلوكون الشعر فلا يأتون عليه الا بعد سنين من معالجة النظم •

ويدخل الشاعر السجن جزاء ما قدم لوطنه الحبيب من جليل العمل فيضيق ذرعاً بهذه البيئة البغيضة فيشكو بثه ويطلق عواطفه حزينة كئيبة فيقول :ـ

أي القلوب يرى ما قد عرى كبدي ولا يذوب لما يلقى من الكمد
لم يبق للدهر سهم في كنانته سهامه كلها آلت الى جسدي
آمنت بالله كم يلقى الرجال عناً وكم يقاسون من ضر ومن نكد
هو التجلد لولا الصبر لانبعثت نار بأفئدة من باطن الجسد
تبت يدا زمن لا زال يرهقنا بما يسير لعهد الشيب بالولد
وامقت الضيم من كل النوائب ما ينوب من يبتغى الاصلاح للبلد
فالويل يطلبه والسجن يخطبه يغدو رهينا عديم الخل والسند

وعلى هذا النحو يطلق الشاعر عواطفه ، وليس من شك ان هذه الابيات لا ترتفع كثيرا عما اثبتناه في المقطوعة الاولى •

ويخاطب الشاعر العصفور على نحو مايفعل الشعراء ويشكو اليه مما يعاني من آلام فيقول :

غناؤك يذكي لهيباً بصدري وما هو الا نواح الاسير
لقد كنت مثلك اذ° طال أسري ومثلك كنت اود اطير
وكنت اذا ما نظمت قريضاً يقولون عني أسير طروب
وشعري يفيض من القلب فيضاً وما الشعر الا دموع القلوب
اراك بريئاً وقد كنت ايضاً اسيراً بريئاً عديم الذنوب
فصرت اذا ماسمعتك أدري لشجوك معنى يهيج الضمير

تقرأ هذه المقطوعة فلا تحس حرارة النجوى ولا لذع الالم واذا افتقر الشعر العاطفي الوجداني الى الحرارة فماذا عسى ان يكون •

ثم يختم هذه المقطوعة بقوله :

بذكر قصتك نفسي مضيقاً بذكراه تذكر نار الجحيم
فقلبي لقلبك أضحى شقيقاً وهاج بحزنك حزني القديم
لك الله اني اراك خليقاً بعطفي واني الشفيق الحميم
اذا ما أهاجك ياطير شعري فشعرك اذكى فؤادي الكسير

وجملة هذه الابيات تفتقر فيما عدا ذلك الى البناء السليم ، فهي ابعد ماتكون عن صفاء الديباجة وهي تشعر ان صاحبها كان قد عانى كثيراً في جمع شتاتها على هذا النحو الذي لايدعوك الى سماعه ، ثم انه لايملك مادته اللغوية على الوجه الصحيح الا تراه قد استعمل « أهاج » رباعياً مزيداً وكان عليه ان يستعمل الثلاثي في هذا المعنى ، لان الرباعي لايؤدي معنى « هاج » فقد قالوا : اهاجت الريح النبت أي ايبسته • وهذا الاستعمال من الدارج المشهور في اللغة العامية حملا على « آثار » مما هو في معناه • ويحب الشاعر وطنه فيشرح هذا الحب باسلوب الغزل فيقول : ـ

برى الحب جسمي فكيف العمل وهل للاسى من حميم شفيق
يعيد الى القلب ميت الامل فينجي من الغرق جفن الغريق

انا الصب لكن غرامي عجيب احب المزاحم في ذا الغرام
واهوى الذي بات يهوى الحبيب ويحرم مثلي لذيذ المنام
وامزج حزني ودمعي الصبيب بحزن ودمع له في انسجام
فقلب بنار الغرام اشتعل لعمري اراه لقلبي شقيق

قلت انه يحب وطنه ولكنه لم يكن له ان يجلو هذا الحب في شكل انيق جميل •

ويرى الشاعران الخمر ام الشر وأصل البلاء فيقول في هذا المعنى :

افكارنا تضطرب ممن نراهم كلبوا
فالجرم اضحى هيناً انواعه ترتكب
والخمر هو السبب
ان البلايا كثرت والاشقياء انتشرت
كم من رؤس كسرت من يد قوم شربوا
والخمر هو السبب
هذا قتيل مرتمي قد عام ليلا في الدم
فتش عن المجترم وابحث تجده يشرب

والخمر هو السبب

مادام في الناس الخمور شيئاً مباحاً كالفطور
والامن قد طار بخور لاتنتهي ذي النـدب
والخمر هو السبب

نقرأ هذه الابيات فلا نرى حاجة الى صوغ هذه المعاني بهـذا القـالب الشعري وما اغنانا عن سماع هذه الافكار التي لايسكن ان تسمى شعراً ، والتي جاءت أقرب الى اللون العامي منها الى الفصيح ، ألا نرى ان الوزن لا يستقيم الا بتشديد « الواو » في « هو » على الاسلوب العامي ، ولكن ما العمل فقـد حال الجريض دون القريض .

والشاعر لا يعلو عن هذا المستوى فكانه ينقل بكلام معرب مايحـدث عنه النـاس اذا اضطربوا سحابة يومهم . ومن هـذا الباب قوله في وصف حفلة : ـ

ليلـة قالوا حوت كل سـرور وانشراح
ببنـات الخبث ربـات الفجور في ارتياح
وانـا كنـت كتنـور يفـور للصباح
دارت الخمـرة مابين الـرجال والاوانـس
واذا القـوم تولاهـم خبـال او مجانـس
قلت ويلى اننى وسـط جمـال بالبرانـس

وبنـات الـدار ينضرن العجب بالشبابك
حاسدات ربـة الحلي الـذهب والسـنابك
قل لـرب الـدار ذا داء الكلب قد أصابك

اقول هذا كلام عامى وان جاء فيه شيء من الاعـراب الفصيح وهـو من غير شك نظم بارد ضعيف لا ترقى مادته الى مستوى النظم المقبول .

وله قصيدة شرح فيها «عجائب السجن» باسلوب قصصى، والـذى نلاحظه في هذه القصيدة ان الشاعر قد استعمل فيها الالفاظ التى يستعملها السجناء في مطلع هذا لقرن في تونس . وهذه الالفاظ فرنسـية اكسـبها الاستعمال المحلى لونا خاصا فاندست في العربية الدارجة التونسية .
بقول الشاعر :

هو السجن ان اسعدت يوما بزوره علمت به مـا لـم تكـن قبل تعلم

عجائبه ما جاء عصر بمثلها ومن عجب عند الطليقين تكتم
ثلاثة اعوام قطعت بحورها وما لم يزل كم هو الله اعلم

الى ان يقول :

دنا خادم منى وظل مفتشا جيوبى وما فيها الى الحجز صائر
وناولنى من بعد ذلك نسرة حديدا لها حد حكته البواتر
فقلت اذن للقطع • يستعملونها نوامر قوم عند قوم خناجر
وسلمنى ذاك (القريف) لحارس تبعت خطاه تعترينى الهواجس

فالنمرة تعنى قطعة معدنية محفور عليها رقم يخصص به الجانى عند حبسه وجمعها نوامر لانها عربت على هذا النحو من الاستعمال • والقريف هو اللفظة الفرنسية Grefliey يطلقها السجناء •

ثم يقول :

فنظمنا «الكبران» مثنى وبعضنا توقى بمنديل له وهو صاخب
فاخرجت منديلى وقلت لمن معى مناديل قوم عند قوم سحائب

وفي هذين البيتين نقرأ «الكبران» وما اظن القارىء يستطيع رد هذه الكلمة الى اصولها بيسر ولكن النظر فيها يهدى الى انها لفظة فرنسية هى Caporale وتعني ضابط السجن • وفي البيت الثاني شيء من الاستعمال المحلي الذي لا نعرفه نحن المشارقة ، فالسحائب جمع سحابة وهي لا تنصرف المعروف من معناها الفصيح وانما تعني ما نطلق عليه «شمسية» وهي الاداة التي نستعملها توقيا من الشمس والمطر •

ويصف الشاعر في هذه القصيدة كيف اخذ جماعة من كتاب السجن في تحرير الرسائل للسجناء كما يصف طرفا من حياتهم فيقول :

وقد وزعوا الاقلام جمعا عليهم عدا واحد اضحى يرى وهو حائم
ولكنه قد شد بالخيط ريشة بمغرفة جاءت يراعاً يلائم
فقلت وذاك الخيط حبرا قد ارتوى مغارف قوم عند قوم بلائم

وقد كان بين القوم شاب مطربش أقام الى ان حنكته التجارب
رأى ذات يوم ان طربوشه التوى واعوزه التحديد والامر واجب
فادخل من جراء ذاك «قميلة» لطربوشه كما تسوى الجوانب
فقلت وقلبى ضاحك اسفا معا «قوامل» قوم عند قوم قوالب

فهو يصف كيف يتهيأ الكتبة ليحرروا رسائل للسجناء، فالكاتب يشد

ريشة بالخيط والريشة معروفة وهى الاداة التى يكتب بها والريشة هذه قد شدت «بمغرفة» والمغرفة كلمة افريقية تعنى ما نطلق عليه بالملعقة ، وهى من الادوات المعروفة عند الاكل . ثم ان هذه «الريشة» صارت يراعا، هـذه «المغارف» «بلائم» ، وما اظن ان القارىء يهتدي بيسر الى مدلول هذه الكلمة الاعجمية ، وصورتها تشير الى انها جمع غير مفرد ، وهى جمع «بلومة»على نحو ماينطق به التونيسيون وهى تعريب Port-Plume الفرنسية

ويعرض الشاعر في منظومته هذه لشيء اخر فيقول : انه كان بين القوم شاب مطربش وان طربوشه قد رث من طول العهد ، واعوزه «التحديد» والتحديد كلمة عامية تونسية وتعنى «الكى» الذى تعالج به الملابس لتجيء مرتبه أنيقة ، والكى يتم بالاداة الحديدية المعروفة ، اما اصطلاحهم «التحديد» فهو ترجمة للكلمة الفرنسية فالمكواة التى تعالج بها الملابس تسمى بالفرنسية « Fer » وهى تعنى ايضا مادة الحديد . ويعرض الشاعر لهذه الطرفة فيذكر ان «التحديد» قد تم بوضع الطربوش في «قميلة» وهذه اخرى لانستطيع ان نردها الى اصلها بيسر وهى تعريب للكلمة الفرنسية Gammel وهي اناء يحمل فيها الماء وقد تم تعريبها فجاءت مجموعة على «قوامل» .

ومثل هذا استعماله «بوانت» جمع بونته وهى عقب «السيكارة» وهى كلمة أعجمية فهو يقول :

فتخطفها الايدي سراعاً وهكذا «بوانت» قوم عند قوم سكائر

ومن الشعراء التونسيين في هذا العصر الشيخ صالح النيفر[٥] ولابد ان نعرض لشيء من شعره فنرى قصيدته «اردنا السلام» التى يقول فيها :ـ

بياض الهلال وقانى المحيط على عز متينا من الشاهدين
أردنا السلام وراموا الحسام فكلنا على سله قادرين
وقالوا الضباة لتأديبنا وسيل الدماء يرينا اليقين
ورمنا اعتدالا وراموا اشتطاطا وكنا على حقنا مذنبين
وأعظم بجرم لديهم أنا لتربة اجدادنا طالبين
فكم جيشوا من طغام الوحوش وكم من لجين لهم باذلين

٥ ـ الشيخ صالح النيفر من علماء الزيتونة المشهورين ، وهو من شعراء الحماسة فقد اهتم بديوان عنترة . وشعره الحماسي جزل الالفاظ متين العبارة .

وأنكر بعض احتلال الربوع وبعض تولى مع الهاربين

واجتزى بهذا القدر من قصيدة عدتها عشرون بيتا تنسرب على هذه الوتيرة الباردة ، فانت لاتجد فيها عناية بالشكل ، كما لا تلمس في أبياتها عمقا في الافكار • وهى خلو من كل خصيصة من خصائص الاثر الفنى • ولا شك ان القارىء الناقد لا يحس ان صاحب الابيات مجهد متعب يفتش عن مادته اللفظية فلا يظفر منها بشيء ذى بال ، وهو من بعد هذا يلم هذا الشتيت المتنافر الذي يفتقر احيانا حتى الى المشهور المعروف من معاني الالفاظ وصورها ، ويبلغ به الجهد الى ان يتجاوز على المشهور من قواعد النحو والصرف • والا فكيف تحكم على متأدب لا يعرف الظبى فيذهب الى «الظباة» وهي مادة لا وجود لها في مظان اللغة • ولا اريد ان اترك هذه الابيات دون ان اقف على قوله :

ولولا القوات تبين الحقوق لما كان ربى القوى الامين

لتدرك هذا الضعف الواضح الذى لا يهيىء الشاعرية لصاحبه •

ويفخر الشاعر النيفر في قصيدته عنوانها «الصدء أو القبر» يستقبل بها اطلاق سبيل الشيخ عبدالعزيز الثعالبي زعيم الحركة الدستورية في تونس في رمضان من سنة تسع وثلاثين وثلثمائه والف للهجرة فيقول :

حمدنا السرى اذ طالع الصبح يفتر وسمنا المعالي والثبات لها مهر
وطئنا السما فلتخضع الشهب للذى نحاول وليسمح بما ترتجى الدهر
لا بائنا جيل فخارا مكلل لهم منة عن كل بر له ذكر
لهم عزمات طاولوا الشهب دونها فهل عزمنا يوهي وانا البنو العز
فلا والذى تجرى النجوم بامره سنثبت لو ان زلزل البر والبحر

ربما من حقه ان يفخر ومن حقه ايضا ان يشيد بمآثر قومه فيزهى بها ويتيه على ألا يجور على الفن بسبب من هذا الفخر الذي لا يخرج عن دائرة النظم • وربما تهيأ لكثير من النظامين شيء يفوق هذه الابيات •

ويحب الشاعر وطنه ويتجلى هذا الحب في شعره كثيراً ، ولكن هذا الحب لا يعتلج في نفس الشاعر فتتأجج حماساً ينساب في قصيدة عامرة ، ولكنه لا يفارق اسلوبه ومنهجه • واذا كان اسلوب الشاعر مرآة تظهر فيها نفس الشاعر متجلية بارزة ، فليس غريبا ان نرى ضآلة الحظ الفنى في قصيدة النيفر «وطنى» التى يقول فيها :

وطنى اليك فان كل حياتى وقف عليك وان أمت فرفاتى

اني بلـوت الدهر في جـريانه فوجدت كل الفوز في العـزمات
ووجدت لس الحق جانب نهجه بل ما بـدا مـن جانب القوات
قالوا التمدن شرعـة اليوم التى تقضى بنبـذ تجبـر السـادات
وتألف الملل العـديدة بالاخـا والسـعى للمجموع لا للـذات

وفي مثل هذا الموضوع يقول الشاعر في «بث شكواه» وبث الشكوى ونداء الوطن من الموضوعات العاطفية التى تتيح للشاعر ان يجيد فيها وان يقبس من الفن قبسات لو أنه رزق الشاعرية الاصيلة ، غير ان صاحبنا النيفر لم يخرج عن طريقة النظامين ولم يخرج عن نطاق التقليد والحفاظ على القديم وها هو يقول :

لـي مشـتكى فـابثـه بسمـاء مغنـاك النضير
فاليك تونـس مـا ارى لـو انهـا الـذكرى تثير
فلـكـم انـا متسـائل اين المناخ بـذا المسـير
واخـاف ان لـبى المنون بنـو البـلاد بلا نشـور
أفـميـت الاحيـاء ان ماتـت مشاعـره تشـور

الى ان يقول

أفليـس في خضرائنـا شـهم على المعنـى غيور
او مـن أبـي أروع بعـلاج كبـوتهـا خبير
او مـن همـام صـادق دم حب موطنـه يفـور

وهكذا لم يوفق النيفر في بث شكواه فجاءت قصيدتـه باردة جافة متعثرة في مبناها ومعناها .

ومن الشـعراء التونسيين في مطلع هذا القـرن الشاعر محمد الفائز[٦] من شعراء القيروان وهو كسائر الشعراء التونسين في هذه الفترة لم يخرج عن القديم في افكاره ومعانيه ، ولكنه تميز عن غيره من شعـراء تونـس في تصرفه ببحور الشعـر مفيداً مـن الموشحات ومما ابتكـره السوريون واللبنانيون المهاجرون في الدنيا الجديدة . ثـم انك اذا قأـرت شعر الشاعر وجدت به شبوب العاطفة ، وفي ذلك فاق كثيراً من أقرانه مـن حيث صدق العاطفة ، والاصالة في التعبير عنها ، واليك شيئاً من «خطراته» :

---

٦ ـ الشيخ محمد الفائز شاعر تونسي ولد في مدينة القيروان سـنة ١٩٠٢م عاصمة افريقية منذ الفتح الاسلامي الى سنة ٣٠٣ . نشأ فيها وقـرأ في كتاتيبها ثم حل في العاصمة التونسية ودخل الجامع الاعظم سنة ١٩٢١ وبعد تخرجه اشتغل بالتعليم .

يـاريـاض النـرجـس يـاريـاض النـرجـس
فتتقـــى في مجلســـي وابعثي مـــن خاطـرى
نفحات الزهر
ناثرات رائحات
غـاديـات
وسط ذاك المحفل
وكـؤوســـ الـراح في كـــف ذاك الاغيـــد
طـرحت مـــن اسـفى عبـأة عـــن كبـــدي
وغـدت في نظرى
زاهـرات حافلات
باسـمات
عن حباب العسل
يـا قـوام البـــان قـم غـن بـالـلحن الشـجى
واتـل هـاتيك الـنغـم لا تخـف مـــن حـرج
فبنات الفكر
خاطرات موحيات
بالحيـاة
مثل عهـد الموصلى

ومثل هذا اللعب بالشكل الذى يذكر بابتكارات شعراء المهجر قصيدته «خلنى اندب» التى يقول فيها :

خل جفنى بـاكياً في سـهـرى وصباحى
لا تعنفنـى فمـا مـن كـدرى خير لامى
واتل في لـوحى سـطور الخبر عن كفاح
خلني ابكى حـدودى العـربـا في نشيدى
انـنـي ان لعبـت ريـح الصبـا بالقدود
خلتهـا تبكـى حيـاة النجبـا من جدود
اعلى الـرمضاء بات الشـعب أم في هناء
أتـرى نـدفع خطبـاً ان ألـم بالبكاء
كـم تقاسى مـن خطوب وألـم في شقاء

ثم اذا سمعت قصيدته «على قبرى» تبينت صدق العاطفة الذى يشيع

في شعره في لفظ رشيق ومعنى قريب الفهم :

قف على قبري اذا خلفنى ... اهل ودى وتولوا زمرا
واسقه من صيب الدمع كما ... كان دمعى سابقاً منهمرا
وانثر الزهر حواليه وقل ... هكذا كنت تحب الزهرا
وتحنن عنده واشك له ... عادى الدهر اذا ما استنكرا
واذا اعوزك الصبر فنم ... وترقب زورتى عند الكرى
اننى اهواك في رمسى فلا ... تخش سلوانى بذياك الثرى
واذا هرولت الشمس الى ... حذرها فاستجدها ان تصبرا
وذر الورق تغنينى كما ... كنت من قبل اغنى الشعرا
وخذ الغصن بكفيك وقل ... هاهنا غصن ودادى هصرا

كما يظهر هذا اللون العاطفي في شعر الشاعر وهو يحس بما يعانيه وطنه الحبيب فيقول في «صوت تونس» :ـ

أتصبر بعد ما انصرم الشباب ... وتغريك النواهد والكعاب
وتطرب والاسى وقف علينا ... ونحن على المصائب لا نثاب
فشمر والتفت يوماً قليلا ... الى ما كاد يتلفه الخراب
ربوع العلم ويحك دارسات ... وربع اللهو ناطحة السحاب
جثا الاباء في حلق الزوايا ... وهذا النشء فارقه الصواب
فمالك خادر الاعصاب نوماً ... ونحوك قد تطاولت الرقاب
لقد عاف الجهالة كل شعب ... وهب كأنه اسد غضاب
ومزقت الشعوب على يديها ... قيود الاسر وارتفع النقاب
تهيب بنا فهل من مستفيق ... وخوفي صوت تونس لايجاب

ويبدو التقليد في الادب التونسى في مطلع هذا القرن فيترسم نفر من الشعراء التونسيين خطى المشارقة فهذا الهادىء المدني[٧] الذي أعجب بجميل صدقى الزهاوى فصار يحاكيه في طريقة النظم السهلة وفي طريقته في تسخير النظم لمعالجة ما جد في الحياة من افكار وما ابتدع من وسائل ، كأن يتحدث عن الكهرباء ومسألة الجذب والدفع فيقول في قصيدته «خواطر» :

انما هذه الحياة خيال ... سوف يبدو حقيقة بعد حين

---

٧ ـ الشيخ الهادي المدني من شعراء التونسيين . ولد سنة ١٣١٨ هـ وتخرج في جامع الزيتونة سنة ١٣٤٠ هـ .

اجج الكهـربـاء في هـذه الـدنيا جنين مستتبع بجنين
انسـا نحن كهـرباء بهـا نشى وان كـان اصلنا من طين
وارى في دم الشـرايين فكـراً لم يـزل في مواطن التخمين
خلف هذا الوجود تلقى قوى تبدو لفكـر البحاثة المسـتبين
ان للبـدر في البسـيطة تـأثيراً خفياً وقـد بـدا لعيونى
وارى الدفـع علة الجـذب فالدفـع اذاً اصل قـوة التمكين
ليس يلقى شيء احـب الى نفسـى واهوى أراه مثل يقين

هذه الابيات ذات فائدة في توضيح منهج الشاعـر التقليدى، فانت تحس أن صاحبها قد اتخذ من شاعرنا الزهاوى مثلا يحتذيه فهو يعـرض لافكاره ولما صرح به من نظريات كقوله في مسألة الدفع وان قوة الدفع هى الغالبة لا كما قالوا بالجذب • ولولا اني اخبرك ان هذه الابيات هى المهادى المدني لقطعت من غير شك بنسبتها الى الزهاوى فهى زهاوية مبنى ومعنى •

ثم لا تترك هـذه القصيدة دون ان نعـرض للمقطوعة الاخـيرة التي تناول فيها في مشكلة المرأة ، ومشكلة المرأة من «الزهاويات» أيضاً فالمعروف ان الشاعر الزهاوى كان من انصار المرأة ولـه في ذلك شعر كثير ، وقصيدة السيد المدني هذه «زهاوية» في الشكل والمضمون اقول «في الشكل» لانها لا تشعر بجودة البناء وانسجامه مع الموسيقى الشعرية • ولنسمع السيد المدني في هذه الابيات :

وارى للنسـاء صوتـا سيبـدو لـه في الخـافـقين اى رنين
علمـوهن علمـوهن ان المـرأة اليـوم ذات رأي ثـمين
انظـروا للنساء في الغـرب كيف اصبحن في قـرار مكين
علموا المـرأة العلـوم تـروهـا بعـد حين لكـم كحصن حصين
لقنوها الاداب تثبت لكم خير شبـاب يزهو بفكـر متين
لقنوها مجد الجدود تروا أبناءها كالاسود عنـد العـرين
أفهمـوها ان التباهى بالعفة لا بالافـراط في التحسـين
نـوروا عقـلهـا والا فـانتـم لا تـزالـون في ظـلال مـبين
ان من شل عضوه عامـداً حق عليه سوط العـذاب المبين

ولا بد ان تتعقب هذه الطريقة الزهاوية في شعر السيد المدنى ، وهى واضحة في اكثر من قصيدة من قصائده ، والطريقة الزهاوية تعتمد على تقرير اشياء مفهومة باسلوب حكائي يفتقر الى الفن الاصيل • وهاك قصيدة

شاعرنا التونسي التي اسماها «أترى» :ـ

أترى يعود المجد مجد بلادى ام هكذا تبقى على استعباد
اترى نهب لنيل حق ضاع ام هكذا نبقى كثقل جماد
اترى بنى الخضراء تنهض للعلا فتعيد بعض الروح للاجساد
وتنيل تونس سؤدداً ومكانة وتزيل ارجلها من الاصفاد
وتنيل فخرا احكمت بنيانه ايدى اباة قادة امجاد
ام هكذا ترخى حياة مذلة جلت مخازيها على التعداد

هذه الابيات ليس فيها من الشعر غير هذا الوزن الموسيقي فلم يأت صاحبها الا بالالفاظ التى وصلت ببعضها فجاءت موزونة تفتقر الى عناصر عدة لتكون شعراً • انظر الى استعمال الشاعر للاشارة «هكذا» في غير حاجة الى ذلك ، فقد أتى بها كما يؤتي بالتكاة التى يتوكأ عليها، وهى تشبه قول الزهاوى في تحية العلم :

عش هكذا في علو ايها العلم فاننا بك بعد الله نعتصم

وهذا اللون الادبي يفتقر الى الكثير من عناصر الشعر الحي ، وهو نظم ليس غير • ونستطيع ان نلمح شيئا من طريقة الرصافي الشاعر العراقى في الادب التونسى وذلك في شعر الشاعر محمد المكى بن الحسين[٨] وذلك في الشعر الاجتماعى كأن يقول في «مكارم الاخلاق» او يتحدث عن الفضيلة باكياً راثياً ، وقد تثيره الحال في تونس وماآلت اليه من زوال مجدها القديم وحضارتها المشرقة •

ولنسمع الى محمد المكى بن الحسين يقول في «مكارم الاخلاق» •

تبغى العلا وتعادى الفضل والادبا خنت النهى ورضيت الذام والريبا
فكر بنفسك هل شمت الثناء على سوى كريم تحرى البر مصطحبا
ان المعالى اذا ضلت معالمها فابغ الفضيلة تستوضح لك السببا
أنبت على حبها الانباء من صغر فقد كفاهم حلاها الدر والذهبا
لا تشرفن المساعى والطبائع في سود انطباع وماء الوجه قد نضبا
وان تر العلم زين المرء فالخلق الزاكى يزين الفتى والعلم والنشبا

والى اخر هذه القصيدة التى لا تبعد كثيرا في افكارها عما اسلفناه

---

٨ ـ ولد الشيخ محمد بن الحسن سنة ١٣٠١ في مدينة نفطة في مدن الجنوب التونسي المواجهة لصحراء الجزائر ، وقد نشأ في زاوية ابيه ثم دخل « الزيتونة » وقد هاجر مع اسرته الى دمشق سنة ١٣٣١ واشتغل بالتدريس في المدارس الاهلية ، ثم رجع الى تونس سنة ١٣٣٨ .

وهو ما يدخل في الحديث عن الاخلاق الحميدة وفضل العلم والادب •
قلت اننا نلمح في شعر محمد المكى بن الحسين شيئا من نهج شاعرنا الرصافي، وانا واثق حين تقرأ هذه الابيات تستذكر الكثير من شعر الرصافي في هذا الباب وربما لم يفتك ان تذكر قصيدته :

هى الاخلاق تبنت كالنبات اذا سقيت بماء المكرمات

ولابد من العود لشاعرنا التونسى لنقرأ قصيدته «دمعة على الفضيلة»

قفا نبك من شجو يئن به الصدر ولو حل في صخر لذاب به الصخر
شجون غدت ترمى الفؤاد نبالها تباعا وما أبلى معاقلها عصر
خطوب بها أمسى الحشا مجمع الاسى ومخمر دمعى لا ينهنهه الزجر
ولست على غير الفضيلة باكياً انوح لمتآها وقد عدم الصبر
اقول على رسم لها غير باخل بدمع به يخضل من وبله العفر
يجدد تذكارى لها كلما بدا لعينى رسم او دهى مسمعى ننكر

وفي هذه الابيات شيء من ديباجة صافية تتوكأ على الادب القديم ومثل هذا كثير في شعر الرصافي الذى تشيع فيه أوابد الابيات القديمة يأتى بها على سبيل الاقتناص اللطيف لا التضمين الواضح •

ومثل هذه الديباجة الصافية نلخصها في شعر السيد على النيفر[٩] من شعراء تونس في مطلع هذا القرن • ولكن في صفاء ديباجته شيء من الادب القديم فاذا قرأت شعره خيل اليك انك تقرأ لشاعر من شعراء الاعصر الخالية •

ومن امثلة هذا التأثر بالقديم التزامه بالمعارضة على عادة الشعراء المحافظين ، ومن ذلك قصيدته «في الليل» الى عارض فيها «الحصرى القيروانى»

الجفن هواك يسهده من يسعده او ينجده
والقلب تخوف راحته شجن بالنفس تردده
والجسم يذوب عليك جوى ونبابى الليلة مرقده
يابدر دجى في غصن نقا يسبى الرائين تأوده
الله نشدتك في كلف دنف ملته عوده

وفي هذه الابيات يبدو الشاعر في منهجه التقليدى في هذا الغزل المصطنع •

---

٩ ــ ولد الشيخ علي النيفر سنة ١٣١٨ ونشأ في اسرة اشتهرت بالفضل والعلم وقد التحق بالجامع الاعظم وقد تخرج فيه بعد ست سنين واشتغل بالتعليم •

ثم تقرأ قصيدته «دع ملامى» فيطالعنا شيء من الديباجة البحترية الصاخبة فيقول :

دع ملامى على الهوى فهو دأبى ... ليس أمر العذول فيه مطاعا
انت لم تدر ما الهوى فدع اللو ... م الى ان تزيح عنه القناعا
خلنى اذكر الليالى الخوالى ... وأرجّى لا نسهن ارتجاعا
فكريم الطباع من حفظ العهد قصيا وواجب الود راعى

ومثل ذلك قوله في قصيدته «صوت من وراء الحجاب» :

بنفسى صوت قد غدوت به صبا ... أصيخ له من المسامع والقلبا
له موقع في السمع موقع عارض ... لدى ظامىء اهدى لغلته شربا
اذا بلبل يشدو على فرع ايسكة ... يرنح عطفى من يصيغ له عجبا
بلى صوت من اهوى على غير موعد ... ملا اذنى درا يساقطه رطبا

وفي مثل هذا المنهج التقليدى نقرأ للسيد مصطفى آغه[١٠] من شعراء تونس البارزين في مطلع هذا القرن ولكنه يعيد الى سمعك الشعر القصصى الذى عرفته لدى الرصافي الشاعر العراقى في قصائده «اليتيم في العيد» و «ام اليتيم» و «المطلقة» وغيرها .

وعلى هذا النحو نقرأ للسيد مصطفى آغه قصيدته «حياة البغى»

حدثتها عن لعوب معصر ... آنسات جئنها للسمر
قلن «ريا» يا «رباب» مالها ... من حليل طيق ذاك الخبر
بل بغى احرزت منزلة ... عظمت عند العظيم الموسر
اكبروها مذ رأوها قمراً ... برزت في حلة من صغر

في مثل الحوار الذى يقوم على السؤال والجواب والحديث والاعراب، يستمر الشاعر في عرض حكاية فتاة نصبت لها الحبائل فتحولت من عفاف وطهر الى حياة الرذيلة والعهر .

وهذا النمط الحكائى كثير في شعر مصطفى آغه ، وحديثه يدخل في باب الادب الاجتماعى . ومن ذلك قصيدته «البرىء المضطهد» وقصيدته «الزواج» التى يعالج فيها اغراء المدنية ومشكلة المهر الذى لايطيقه طالب الزواج وفيها يقول :

١٠ــ ولد مصطفى آغه في مدينة « الكرم » وهي مدينة صغيرة بالقرب من حاضرة تونس ، وهو حفيد مصطفى آغه الكبير مؤسس العائلة الشهيرة ببطولته ووزير الحربية للملكة التونسية في عهد الحسينيين سنة ١٢٩٤هـ . وهو من أصل مملوكي .

سل من رمت مهج الورى احداقها عما لقى من غدرها عشاقها
كم أحرقت كبدا بنار صبابة قد حل في شرع الهوى احراقها
فاقت لواحظها سهام كنانة بين الوغى وقد انبرى فواقها
كسدت بضاعة صونها لكنما راجت بحسن ظاهرا اسواقها
فسن الخداع حياتها وغناؤها اغراؤها ونفاقها انفاقها
ان القلوب اذا هوتها كلما زادت خفوقا زادها اخفاقها

وانت من غير شك واجد في هذه الابيات الصفة الواضحة في العناية بالشكل مما لا يطيقه زوق هذا العصر وهى مخلفات الماضى القريب •

الجديد فى الأدب التونسي

ابو القاسم الشابي

ليس ابو القاسم الشابي مشكلة من المشكلات • لقد رزق الشابي الشهرة ، وشاع صيته ، وكثير على امرىء ان يرزق الشهرة ولم يبلغ من العمر في هذه الدنيا الفانية الا ربع قرن • اذن لابد ان يكون لهذا لهذا الفتى مكان هيأ له هذه الشهرة الفائقة وذلك الصيت الذائع •

صاحبنا السيد ابو القاسم شاعر تونسى ، وفي تونس شعراء كثيرون وان فاتنا ان نعرف ــ نحن المشارقة ــ الكثير منهم • ولكن الفتى الناحل قد بذ جمهرة هؤلاء ، فلم يعرف في حيز هذه الخضراء التونسية حسب ، بل سبقه اسمه الى اقاليم عدة • وربما قرأ له او سمع به قوم لايعرفون من حاله الا الشيء القليل • وانا لا اشك في أن كثيرا من هؤلاء لا يعرف «الشابة»[1] من أعمال الجنوب التونسى ولكنه سمع الشاعر الشابى في صوت احدى مغنيات هذا العصر مردداً : «اذا الشعب يوما اراد الحياة» ولا اريد ان أشير الى ان هذه القصيدة كانت سببا في الشهرة التى اصابها الشاعر • وذلك ان الشاعر قد أوتى هذه النعمة قبل ان تنبس شفتا المغنية بالنغم المطراب •

وقد قلت : إن في تونس شعراء كثيرين ، ومن عجب انهم لم يصيبوا ماأصاب السيد الشابى من ذيوع الاسم في تونس نفسها احياءً أو امواتاً • قد تقول : ان الشابى قد سعى بنفسه ودعا لها وانه قد مل ماكان القوم

١١ــ انظر الخيال الشعري عند العرب لابي القاسم الشابي (تونس الشركة القومية للنشر والتوزيع) •

يضربون فيه من مادة الادب فقيض له ان يعرف جماعة « ابولو » في مصر فوجد فيهم شيئاً يطرب له او يصبو اليه ، فنشر شعره على صفحات مجلتهم المعروفة منذ نحو من ثلاثين سنة • وكانت هذه الزمرة من «الابوليين» حاملة راية التجديد في الادب ، وداعية الى الجديد ، وكان لهذه الدعوة انصار يؤيدون ويعضدون ، وآخرون وجدوا فيها معول هدم لهذا التراث العتيق الذى تفخر به العربية بين اللغات •

ولعل تونس دون سائر الشمالى الافريقى ، كانت على صلة بهذا المعسعسان الفكرى • والتونسيون انفسهم كانوا بين ناصر للقديم داع للحفاظ عليه ، وآخر برم بالاساليب العتيقة التى درج عليها المتأدبون خاصة واهل العلم عامة ، فجامع الزيتونة معهد تونس الاكبر يؤمه افواج من طلاب العلم تونسيين وافارقة آخرين • وهو من مفاخرهم وعنوان مجدهم ، وكان له أن حفظ للعربية مكانها في تونس التى اجهز عليها المستعمر الاجنبى بخيله ورجله وعلمائه • ولكن شيوخ الزيتونة لم يبغوا حولا عما ألفوه من أساليب الدرس العتيقة • وان الجديد في رأيهم لون من التخليط والعبث • وهكذا برمت الناشئة التونسية بالادب التونسى يومئذ بحدوده الضيقة ومناهجه التى تأبى أي لون من الوان الجديد • وقد بدأت تفتح لهؤلاء الشبان الوان جديدة من الادب ومن الفهم الثقافي عامة ، فاتخذوا من هذه الواجهة البحرية باباً ينفرج عن العالم الاوربى الحديث ، او قل عن فرنسا التى بهر ادبها العقول والقلوب ، فأما الذين يسلكون مفتاح هذا الباب ، وهو الفهم الصحيح للغة الفرنسية فقد انصرفوا الى هذا المعين الاوربى الجديد متخذين منه متاعا طيبا للعقل والنفس واما من لم تتهيأ له معرفة بالفرنسية ، وجل هؤلاء من الزيتونيين ، فقد بقى في حدوده ضجراً برماً بما يقدم اليه من زاد فكرى • وكان الشابى من هذا الفريق الثانى البرم ولكن برمه بلغ أبلغ الحدود ، وربما سرى به الى النفرة من الادب العربى عامة ، كأن الذى كتبه لايست الى العربية بسبب • فقد غلا واستبد وبلغ به عرام الشباب وطيشه ان جرّد العرب من الادب والفن الرفيعين فقد عاب عليهم ضيق خيالهم وانصرافهم للمادة دون العاطفة وان «خيالهم لايطير بجناحين» وأن بيئتهم القاسية الجافة لا يمكن ان تمنح أهلها السمو في التصوير والتلوين ، ومن أجل ذلك لم يبدعوا في مادة «الاساطير» ابداع الاغريق والرومان وقدماء

المصريين[11] • وهذه فورة من فورات الشباب العارم الثائر ، وان هذا الذى كتبه الشابى عن العرب وأدبهم واحد من الغلاة ولم يخطر على بال احد من الشعوبية الاولين • ولكن هذا الفتى ثائر وثورته قد يكون من اسبابها عدم التثبت ، وعدم الاحراز على الكفاية من موارد البحث • وقد قيل ان المرء عدو لما جهل • وقد تعجب اشد العجب اذا قلت لك : ان هذا الفتى الشاعر لم يحرز على ثقافة اوربية ولم يتهيأ له ان يعرف الفرنسية لغة وثقافة • اذن فأين درس الادب الحديث في أنماطه الاوربية فصار يتخذ منه مادة للموازنة والمقارنة ، او قل فصار بسبب من ذلك ينعى على الادب العربى جموده وجفافه وانعدام الصور الحية فيه وافتقاره الى الجانب الانسانى ؟

والجواب عن ذلك أنه كان يقرأ ما يترجم من نماذج ادبية اوربية وبخاصة في الشرق العربي ، في مصر • فقد كانت مجلة «الرسالة» ومجلة «الرواية» وقبل ذلك بقليل كانت مجلة «ابولو» وهذه المجلات قد عرفت القراء بشيء من نماذج الادب العالمى • واذا اتيح للسيد الشابى ان يعرف «لامرتين» من الشعراء الرومانتيكيين الفرنسيين ، فانما ذلك قد تم له فيما قرأ ترجمة احمد حسن الزيات لقصته «رفائيل» فصار يتحدث عن بحيرة لامرتين •

وفي الحق ان هذه القراءات لاتمكن صاحبها من التزود بالزاد الكافي من هذا الادب الاوربي بحيث يتصدر لمثل ما تصدر له الشاعر الشابي الذي اتخذ من هذا الزاد الغث معول هدم سلّطه على الادب العربي ، وهذا من شر الثقافة الناقصة يعضدها طيش من شباب مندفع • لقد قلت ان الشابى لم يجد في تونس شيئا من ادب تستريح له نفسه ولكنه وجد في أدب اللبنانيين المهاجرين في الدنيا الجديدة شيئاً يستهويه فاتخذ منه مادة وغذاء • ثم وجد في ادب المتجددين في المشرق وهم جماعة ابولو شيئاً من ذلك •

وهكذا تم للسيد الشابى ان يفاجيء القارىء التونسى بمادة جديدة لم تنبت في «خضرائه التونسية» فهو مجدد ابداً اذا قيس بادباء عصره التونسيين الذين تهيأ لهم أن يفعلوا عن الحفاظ على القديم في اشكاله ومعانيه ، والموازنة والمقارنة بين ادب الشابى وادب الجمهرة الكبيرة من شعراء تونس في تلك الفترة تؤيد هذا الذى نذهب اليه •

١٢ــ اغاني الحياة : ص ٥٢

وقد ظل الشابى من المجددين مع غيره من الادباء المشارقة في تلك الفترة .

وقد تقول : انه زيتونى ونهج الزيتونة معروف في الحفاظ على القديم من الثقافة والتمسك بالتراث الاسلامى ، وطبيعى ان يكون هذا الحفاظ قد سرى الى الناحية الادبية فالادباء الزيتونيون في تلك الحقبة نفر لم يستقبل الجديد بعين الرضا ، وأن اساليب المجددين الوافدة عليهم ان هى الا قوالب عقيمة لا تخدم الادب العربى في شىء . وطبيعى ايضا ان تبقى هذه المدرسة العتيقة آثاراً في أدب السيد الشابي والاستقراء يدل على شىء من هذا . والنظر في « أغانيه » يطلعنا على نماذج قليلة تتبين فيها القدر الذي به مما أملته عليه نشأته الاولى ، فاذا قرأت هذه «اللقطات» وجدتها نافرةً بين «أغانيه» فلم تلبس لبوسها ، ولم تتحلّ بحليتها . وهى مادة تعيد الى ذهنك ابيات المتنبى في ارسال الحكمة السائرة ، وفرائد المعرى[١٢] في التفاتة الى سر من اسرار الحياة ، شامخة بوقارها وبهائها . فهاك مقطوعته التى أسماها «المجد» :

يود الفتى لو خاض عاصفة الردى ... وصد الخميس المجدوالاسد الوردا
ليدرك امجاد الحروب ولو درى ... حقيقتها ما رام من بينها مجدا
فمالمجد في ان تسكرالارض بالدما ... وتركب في هيجائها فرسا نهدا
ولكنه في أن تصد بهمة ... عن العالم المرزوء فيض الاسى صدا .

ومن غير شك انك تحصى في هذه الابيات مادة لغوية هى ليست من الات السيد الشابى في ديوانه وربما عاد الى ذهنك شىء من شعر المتنبى في وصف معارك سيف الدولة «فخوض عاصفة الردى» و « صد الخميس المجر» و «الاسد الورد» ادوات لم تألفها في شعر هذا الفتى الحزين الناحل الذى يغنى الحياة ويبكيها ، وما اظنك غير ذاكر قول المتنبى :

وتضريب اعناق الملوك وان ترى ... لك الهبوات السود والعسكر المجر
ولا تحسبن المجد زقاً وقينة ... فما المجد الا السيف والفتكة البكر

ومثل هذا كثير في شعر المتنبى .

ونعود الى هذه «اللقطات» فنقرأ قوله : «سر مع الدهر»[١٣]

سر مع الدهر لا تصدنك الاهوال ، او تفزعنك الاحداث

١٣ـ أغاني الحياة : ص ٥٢
١٤ـ اغاني الحياة ص ١٠٦

سر مع الدهر كيفما شاءت الدنيا ولا يخدعنك النفاث
فالذى يرهب الحياة شقى سخرت من مصيره الاحداث

وهذا نمط آخر من ارسال الفكرة على نحو ماعرفناه في شعر المتنبى واضرابه ممن ارسلت الحكمة في شعرهم ارسال المثل كأبى تمام والمعرى • والتزام «الدهر» واضح في الادب القديم ، والامثلة كثيرة في مختلف العصور الادبية •

ولم يستطع الشاعر الشابى ان ينفلت من الوزن ، فلم يتصرف بالموسيقى الشعرية تصرف شعراء المذهب الجديد من انصار جماعة «ابولو» مثلا • وربما كان يرى في الحفاظ على الموسيقى الشعرية ابقاء على اهم مايتصف به الشعر العربى • وقد تبلغ به المحافظة على الوزن انه يعمد الى لون من الوان المعارضة ، فأنت حين تقرأ قصيدته «صفحة من كتاب الدموع»[١٤] ومطلعها :

غناه الامس وأطربه وشجاه اليوم فما غده

لابد ان تعود الى ذاكرتك قصيدة الشاعر الحصرى القديم المشهور التى مطلعها :

ياليل الصب متى غده أقيام الساعة موعده

ومن عجيب أن هذا الوزن الموسيقى من بحر المتدارك قد شغف به الشعراء • والاعجب من ذلك أنهم لم يكلفوا به الا بعد قصيدة الحصرى المعروفة ، فكأن الحصرى قد نبه الاسماع الى هذا النغم الراقص • وما أظن أن قصيدة الحصرى على رقتها وأناقتها قد لفتت الشعراء اليها لبلوغها مرافى الفن الاصيل ، والذي أراه ان خفة الوزن واطرابه قد يسرا لهذه القصيدة ان تظل عالقة في اذهان الناس من قديم الزمان الى يومنا هذا وقد شاعت معارضتها وذلك معروف • ثم يأتى السيد الشابى • فيدلى دلوه في الدلاء ويعارض ولكنه لم يكن مقلداً بل جاء مخلصاً لفنه وأدبه باكتساء قصيدته هذا الثوب الجديد الذى يشيع في شعر شاعرنا الشابى ، ولكنك لا تعدم ان تقرأ مع الجدة الممتعة شيئاً من الادب القديم فانظر اليه كيف يتحدث عن الايام فيقول :

يا للايام فكم سرت قلباً في الناس لتكمده
هى مثل العاهر ، للعاشق تسقيه الخمر وتطرده
يعطيك اليوم حلاوتها كالشهد ليؤلمه غده

فأنت اذا قرأت هذه الابيات وكان لك بصر بالادب القديم عرفت ان السيد الشريف الرضى قد قال في رثاء امه شيئاً في قصيدته الباكية التى مطلعها :

أبكيك لو نقع الغليل بكائي وأقول لو نقع المقال بدائي

الى ان يقول :

وخلائق الدنيا خلائق مومس للمنع آونةً وللاعطاء
طوراً تبادلك الصفاء وتارة تلقاك تنكرها من البغضاء

وقد اسلفت ان الشاعر قد شغف بشعراء المهجر ، ولا بد ان يكون هذا الشغف قد أثر في ادبه ، ومن غير شك ان الانصراف الى الطبيعة والركون اليها على النحو الذى عمر به شعر الشابي كان نتيجة هذا التأثر الجديد . وعلى هذا فليس لمؤرخ الادب الحديث الا ان يضع السيد الشابى مع هذه الزمرة الجديدة من مهجريين وآخرين كجماعة «ابولو» واستقراء «اغانى الحياة» يدل على هذا المنحى الذي يجمع بين الشابي واضرابه من دعاة الجديد .

وأنت تقرأ «أغانى الحياة» الا عادت اليك صور من ميخائيل نعيمة وجبران وابى ماضى وغيرهم من شعراء المهجر ، فاذا قرأت قصيدته «جدول الحب بين الامس واليوم» والتى يقول فيها :

بالامس قد كانت حياتي كالسماء الباسمة
واليوم قد أمست كأعماق الكهوف الواجمة

ويستمر في هذا النغم الباكى المتع على طريقته . أقول تقرأ هذا وتعود الى «النهر المتجمد» لميخائيل نعيمة فتحس ان شيئاً متقاربا يجمع بين صاحبنا التونسى وشعر ميخائيل الذى قال في «النهر المتجمد» قصيدته باللغة الروسية ثم ترجمها الى العربية قائلا :

يانهر هل نضبت مياهك فانقطعت عن الخرير
أم هل هرمت وخار عزمك فانقطعت عن المسير

ولكن النغم يتدفق كموسيقى وتريه عندما يسيل النهر في فصل الربيع كما يقول جورج صيدح[١٥] ، ثم يقارن الشاعر بين قلبه الذى ينتظر الربيع عبثاً :

يانهر ذا قلبى اراه كما اراك مكبلا
والفرق انك سوف تنشط من عقالك وهولا

١٥- جورج صيدح ، ادبنا وادباؤنا في المهاجر الامريكية ص ٢٤٧ .

هذا مثل من كثير من الامثلة التى زخر بها شعر السيد الشابى والتى تعيد الى سمع القارىء صوراً مهجرية يستدل منها على ان بين الشاعر الشابى وشعراء المهجر صلة الفن التي تجمع بين الشعراء الفنانين •

وبعد فالشابى من شعراء العربية الكبار الذين رزقوا الشهرة لما قدموا من روائع الادب ولما انصرفوا اليه من اجادة الفن والخلوص اليه ، والغناء فيه ، والنظر في ديوانه »اغانى الحياة« يسعف على تأييد هذا القول ، والا فماذا عساك ان تقول وانت تسمع الشابي في « صلواته في هيكل الحب»[١٦] قائلا :

عذبة انت كالطفولة كالاحلام ... كاللحن كالصباح الجديد
كالماء الضحوك كالليلة القمراء ... كالورد كأبتسام الوليد
يالها من وداعة وجمال ... وشباب منعم املود

الى ان يقول :

يابنة النور اننى انا وحدى ... من رأي فيك روعة المعبود
فدعينى اعيش في ظلك العذب ... وفي قرب حسنك المشهود
عيشة للجمال ، والفن والالهام ... والطهر والسنى والسجود

عيشة الناسك البتول يناجى الرب في نشوة الذهول الشديد

لاشك انك تقرأ لشاعر اوتى الشاعرية فأصاب من ذلك بسهام عدة ، وان كنا نأخذ عليه انه استعار مادة لاتمت الى بيئته الاسلامية ، الا ترى ان الهيكل من مصطلحات العمارة النصرانية • وما ارى ذلك الا من تأثره بهذا النمط المهجرى الذى اسلفنا الكلام عليه • ولا ادرى كيف جمع بين «الناسك الذى يناجى الرب» و «البتول» ذلك ان «البتول» المرأة التى انقطعت عن الازواج او التى انقطعت لله تعبدا وتنسكا فهى العذراء التى اخلصت لله فهى صفة لمؤنث • ومثل هذا التجاوز اللغوى كثير في شعر السيد الشابى ، الا تراه في القصيدة نفسها يقول :

خطوات سكرانه بالاناشيد ... وصوت كرجع نای بعيد

فاستعماله «سكرانه» مأخوذ من المستعمل المألوف غير الفصيح ذلك ان الوجه فيه (سكرى) ، وما اظن ان الشاعر استعمل الكلمة جرياً على لغة بنى اسد في اجازتهم تأنيث «افعل» على «فعلانه» •

١٦ـ اغاني الحياة ص ١٢١ .

وعلى هذا النحو من التجاوز جاء قوله في قصيدته «الغاب»[١٧] :

والى اناشية الرعاة مـرفة في الغاب ، شادية كسرب يمام

فقد التجأ الى «مرفة» مريدا بذلك «رافة» واستعمال الرباعي من هذا الفعل غير وارد ، والثلاثي هو المعروف المالوف ، اما التجاوز للرباعي فلم يكن الا مراعاة للوزن وهذه الهنات لا تضير بناء السيد الشابي الانيق المنسجم ، ونماذج الادب الجميل في شعره كثيرة اجتزأت منها بهذا القدر اليسير في هذه الالمامه الموجزه التي لم أرد منها ان تكون دراسة مسهبة دقيقة علماً منى ان مادتي لا تعين على ذلك فينبغى ان يكون من ادواتي شيء اخـر افتقر اليه في هذه الالمامة القصيرة ورحم الله الشابي .

ومن آثار الجديد في الادب ما نلمحه في شعر السيد سعيد ابو بكر من الشعراء التونسيين في هذه الفترة .

اقول : الجديد في الادب التونسى ولا اريد بالجديد الذى ابتكر في الادب التونسى ، ولكنى اقصد بالجديد ماقصدته في الكلام على شعر ابى القاسم الشابى ذلك ان صاحبنا ابو بكر قد احب اللون الجديد في الادب الهجرى فتأثر به كما حصل لصاحبنا الشابي .

ويبدو هذا التأثر في موشحات أبو بكر التى خـرجت على المألـوف المحافظ في الادب التونسى في هذه الفترة ، ولنستمع الى قصيدة الشاعـر «ايها الليل»

فوق هذا التل عن هـذى الـرمال في انفرادى
هـا انا مـا بين فـرسـان الخيال عـن جوادى
ارمـق الليـل بعين الانـذهـال وهو هادى

انـت يـا ليـل حبيبـي وانـا في ارتياحى
ان لـى فيك سـويعـات هنـا وانشراح
ولـذا ابـدو اذا كنـت هنـا غير صاح
هـكذا يـا ليل اهـواك كمـا انت تدرى
هـكـذا ارنو بعينـى للسـمـا نحو بدرى

١٧ــ اغـانى الحياة ص ١٨٨ .

١٨ــ ولد سعيد ابوبكر في مدينة « المكنين » على الساحل الشرقي التونسـي سنة ١٨٩٩ ولم يتهيأ له ان يتثقف ثقافة عالية ولكنه زود نفسه بالمعارف التى حصل عليها بدرسه وجده .

فاستمع منى حديثاً عندما ضاق صدرى

وفي هذه النغمات تأثر واضح بالاسلوب المهجرى في نجوى الليل مع الالتزام بهذه العناية في النظم • ومثل هذه قصيدته «افق الرزايا» التى يقول فيها :ـ

ايه يافق الرزايا والنغم لا تخن عهدى
ههنا وحدى اناجيك نعم ههنا وحدى
انت شوك ناعم في لمسه طيب الاوجاع
انت بوم مطرب في حسه شنف الأسماع
انت موت مخرج من رمسه ميتا قد ضاع
ان يكن فيك انتقالى للعدم والهنا بعدى
ههنا وحدى اناجيك نعم ههنا وحدى

ثم اذا قرأت قصيدته «الغصن المجرد» بدا لك هذا التأثر بالاسلوب المهجرى :ـ

ياغصن كم غنت عليك بلابل الروض الجميل
من نغمة فيها ارتياح للمقيم وللعليل
ياغصن كم لعب النسيم بما لديك من الورق
فلعبت مثله بالعقول تمتعاً وبدون حق

الا ترى انك ذاكر قصيدة ميخائيل نعيمة في «النهر المتجمد» التى يقول فيها :ـ

يانهر هل نضبت مياهك فانقطعت عن الخرير
ام قد هرمت وخار عزمك فانثنيت عن المسير

وبعد فهذا جهدى في استقراء ما زال مفتقرا الى اشياء كثيرة ، والكمال معوز ولكنى ماض في هذا السبيل أملا في المزيد من البحث والاستقصاء في استجلاء الادب في هذا الجزء من المغرب العربى •